

وضع المرأة لدى الأمم والحضارات السابقة، ومقارنتها بالإسلام

عبدالمطلب رفعت / كفري

الجزء الثامن

المرأة في بلاد ما بين النهرين :

بلاد ما بين النهرين أو بلاد الرافدين بالإنجليزية Mesopotamia : "ميسوبوتاميا"، بمعنى (بلاد ما بين النهرين) كانت من أولى المراكز الحضارية في العالم. وهي تقع حالياً في العراق ما بين نهري دجلة والفرات، واشهر حضاراتها هي سومر وأكد وبابل واشور وكلدان. وهي تقع الآن في جنوب غرب آسيا.

وتعتبر بلاد الرافدين مهد الشرائع والقوانين.. ففيها كتبت أول قانون أو شريعة وهي (شريعة حمورابي).. حيث تعتبر شريعة حمورابي أول شريعة مكتوبة في التاريخ البشري وتعود إلى العام 1780 قبل الميلاد وتتكون من مجموعة من القوانين تطرق فيها إلى حقوق المرأة وحقوق الأطفال وحقوق العبيد.

وكذلك فالأشوريين كانوا من أقدم الشعوب الدينية التي أخضعت النساء

للحجاب القسري وهذا ما أكدته الحفريات في آشور القديمة حيث تم العثور وبحسب المصادر التاريخية على لوحات طينية حيث أن إحدى الفترات في اللوحة تحكي بيان مفصل عن الحجاب وفرض قوانين ضد النساء اللاتي كن لا يرتدين الحجاب. كما وكانت الجارية إذا خرجت مع سيدها وجب عليها الحجاب، وكان الرجل إذا أراد الزواج يحضر أصدقائه ويعلن أمامهم أن هذه المرأة أصبحت زوجته ويتم حجابها.

ومن جهة أخرى تضمنت شريعة حمورابي (أقدم قانون في التاريخ) على بنود عديدة تتعلق بالمرأة ومثالا من تلك الشريعة أن المرأة كانت تتبع زوجها من دون أي استقلال في الإدارة أو العمل، حتى أن الزوجة إن لم تطع زوجها في أي شيء من أمور المعاشرة أو استقلت بشيء من الفعل كان للزوج أن يخرجها من بيته أو يتزوج عليها ويعاملها معاملة الجارية ملك اليمين وتفقد بذلك حريتها. ثم أنها لو أخطأت في تدبير البيت يأسراف أو تبيذير كان له أن يرفع أمرها

إلى القاضي ثم يغرقها في الماء بعد إثبات الجرم وقبل القضاء.

وقد نص قانون حمورابي رقم (129): (إذا قبض على امرأة مضطجعة، مع سيدتان فيجب عليهما أن يوثقوهما ويلقوهما في الماء) كما ويمكن لزوج المرأة أن يبقي زوجته على قيد الحياة إذا رغب، كما يمكن للملك أن يخلي حياة أمته.

والمرأة الأشورية كانت تعتبر ملكاً للرجل وله الحق في أن يرحمها ما تملك، ويطلقها متى أراد، ولا فرق بينها وبين الحيوان وكان الرجل يأمر وهي تتلقى الأوامر وتتفدأ صاغرة وليس لها حق في الاعتراض أو ماشابه.

ويجزم البابليين ان المرأة لم تخلق الا لإسعادهم واشباع رغباتهم الجسدية والجنسية. ولهم تاريخ طويل في اضطهادها والتعامل معها بأبشع الطرق. وكان السومريين يعاملون المرأة ببشاعة شديدة مثلما كانت تعامل عند جميع الشعوب في تلك الأزمنة. فلم تكن مكانتها أحسن من أخواتها في البلاد المجاورة، وذلك على الصعيد



بلاد ما بين النهرين بمركز مرموق فقد كانت أولاً تتمتع بالشخصية القانونية الكاملة، فكانت لها أموالها الخاصة، كما كانت تتمتع بحق الشهادة الكاملة كالرجل تماماً، كما كان يحق لها أن تتصرف في أموالها كيفما تشاء. إلا أن أغلب المصادر تتفق على أن وضع المرأة في بلاد الرافدين لم تكن بأحسن حال مما كانت عليه المرأة الهندية أو الفارسية أو غيرها.

للزوج أن يبيع زوجته على سبيل العقاب في حالة خيانتها له. ففي شريعة حمورابي كانت تعتبر المرأة مثل السائمة، وليست لها الأهلية للملكية ولا للتصرف وإذا قتل رجل ابنة رجل آخر فعليه أن يسلمه ابنته ليقتلها أو يسترقها حسبما يشاء. إضافة إلى ذلك فإن التاريخ يذكر لنا في بعض صفحاتها ما هو عكس ذلك ففي بعض المصادر يذكر أن المرأة تمتعت في

الاجتماعي، ومن حيث الحرية والكرامة. ويذكر التاريخ أن الأشوريين والبابليين في العراق والشام كانوا قد عاملوا المرأة بمثل ما كان يعاملها به المجتمع الهندي من استرقاق أبدي، وإنكار لقيمتها الإنسانية ومكانتها الاجتماعية. فقد كان للزوج بمقتضى سلطته الزوجية أن يرهن زوجته لدى دائته حتى سداد الدين ويشترط في هذه الحالة ألا تتجاوز فترة رهنها ثلاث سنوات بل كان يجوز

العنف ضد المرأة.. الأسباب والعلاج

من طرف امرأة من أجل إخضاع المرأة والتسلط عليها .

وهناك من يعتقد أن العنف هو لغة التخاطب الأخيرة الممكنة استعمالها مع الآخرين حين يحس المرء بالعجز عن إيصال صوته بوسائل الحوار العادي، ولكنه يأتي مع المرأة اللغة الأولى للتخاطب معها كما يستخدمه البعض وكأن الآخر لا يملك لغة أخرى لاستعمالها، ليجعل من هذا العنف كابوس يخيم على وجودها، ليشل حركتها وطاقتها، ويجعلها أطلال من الكآبة والحزن والخضوع.

أسباب العنف ونحاول في هذا المختصر القاء الضوء على الأسباب الكامنة خلف كواليس هذا النوع من العنف:

1- تعتبر المرأة نفسها هي أحد العوامل الرئيسية لبعض أنواع العنف والاضطهاد، وذلك لتقبلها له واعتبار التسامح والخضوع أو السكوت عليه كرد فعل لذلك، مما يجعل الآخر يأخذ في التمادي والتجراً أكثر فأكثر. وقد تنجلي هذه الحالة أكثر عند فقد المرأة من تلتجأ إليه، ومن يقوم بحمايتها.

2- الأسباب الثقافية كالجهد وعدم معرفة كيفية التعامل مع الآخر وعدم احترامه، وما يتمتع من حقوق وواجبات تعتبر كعامل أساسي للعنف. وهذا الجهل قد يكون من الطرفين المرأة والمعتد لها، فجهل المرأة بحقوقها وواجباتها من طرف، وجهل الآخر بهذه الحقوق من طرف ثان مما قد يؤدي إلى التجاوز وتعدي الحدود.

بالإضافة إلى ذلك تدني المستوى الثقافي للأسر وللأفراد، والاختلاف الثقافي الكبير بين الزوجين بالأخص إذا كانت الزوجة هي الأعلى مستوى ثقافياً مما يولد التوتر وعدم التوازن لدى الزوج كردة فعل له، فيحاول تعويض هذا النقص باحثاً عن المناسبات التي يمكن انتقاصها واستصغارها بالشتم أو الإهانة أو حتى الضرب.

3- الأسباب التربوية قد تكون أسس التربية العنيفة التي نشأ عليها الفرد هي التي تولد لديه العنف، إذ تجعله ضحية له حيث تشكل لديه شخصية ضعيفة وتأنه وغير واثقة، وهذا ما يؤدي إلى جبران هذا الضعف في المستقبل بالعنف، بحيث يستقوي على الأضعف منه وهي المرأة، وكما هو المعروف أن العنف يولد العنف. ويشكل هذا القسم من

مع مطلع القرن الواحد والعشرين ومع كل ما حققه الإنسان من التقدم الهائل في كافة الأصعدة والمجالات الحياتية، ومع ما يعيشه إنسان اليوم في عصر الحداثة والعولمة، ولكن لم يستطع هذا التقدم أن يهدي إلى البشرية جمعاء السلام والرفق والمحبة والألفة.

إذ تبقى هناك الكثير من مظاهر الهمجية والجاهلية الحاكمة في العصور الغابرة عاقلة ومترسخة في النفس البشرية وكأنها تأتي أن تنفض ذلك عنها، رغم تغير الرداء الذي ترتديه.

و ظاهرة العنف عامة هي من هذا النوع الذي يحمل هذا الطابع، إذ إنها تهدد المنجزات التي حققها الإنسان خلال السنوات الماضية، والأسوأ من ذلك كله عندما يتعدى ويمتد هذا العنف إلى الفئات الضعيفة في المجتمع كالمرأة مثلاً.

فالعنف ضد المرأة من الأمور التي تجلب انتباه المتصفح والمتتبع للأحداث..

تقول الأرقام أن : * 52٪ من النساء الفلسطينيات تعرضن للضرب على الأقل مرة واحدة في العام 2000.

* 47٪ من النساء يتعرضن للضرب في الأردن بصورة دائمة.

* 30٪ من النساء الأمريكيات يتعرضن للعنف الجسدي من قبل أزواجهن.

* 95٪ من ضحايا العنف في فرنسا من النساء.

* 8 نساء من عشر ضحايا العنف في الهند.

* 60٪ من سكان الضفة الغربية وغزة دون 19 عاماً يتعرضون للتهديد الجسدي واللفظي والمطاردة والتوقيف والاعتقال.

والمتمتع لهذه الإحصاءات يرى إن العنف الوارد على النساء لا يختص فئة معينة أو ثقافة خاصة أو جنس محدد، وإنما يشمل كافة الثقافات والدول المتقدمة منها أو مانسمى بالدول النامية أو دول العالم الثالث.

والعنف يعني الأخذ بالشدّة والقوة، أو هو سلوك أو فعل يتسم بالعوانية يصدر عن طرف بهدف استقلال وإخضاع طرف آخر في إطار علاقة قوة غير متكافئة مما يتسبب في أحداث اضرار مادية أو معنوية أو نفسية .وحسب هذا التعريف فان العنف يشمل السب والشتم والضرب والقتل والاعتداء... الذي يأتي من طرف رجل أو مؤسسة أو نظام أو حتى

طرقات بلدتها.

* التوعية الاجتماعية سواء كان ذلك في المجتمع الأنثوي أو في المجتمع العام، إذ لابد من معرفة المرأة لحقوقها، وكيفية الدفاع عنها، وإيصال صوت مظلوميتها إلى العالم بواسطة كافة وسائل الإعلام، وعدم التسامح والتهاون والسكوت في سلب هذه الحقوق، وصناعة كيان واعى ومستقل لوجودها.

ومن طرف آخر نشر هذه التوعية في المجتمع الذكوري أيضاً، عبر نشر ثقافة احترام وتقدير المرأة التي تشكل نصف المجتمع بل غالبية.

* إن الدور التي تلعبه وسائل الإعلام المرئية والمقروءة والسموعة في بث العديد من الثقافات إلى جميع المجتمعات سلبي أو إيجاباً واضحة للجميع، لذا من الضروري تعميم هذه التوعية لتصل إلى هذه الوسائل لتقوم بالتغطية اللازمة لذلك.

ولابد من تضاعف هذه الجهود بالنسبة إلى وسائل التلفزة لحذف المشاهد والمقاطع التي توحى من قريب أو بعيد إلى تدعيم ظاهرة العنف ضد المرأة.

* إنشاء المؤسسات التي تقوم بتعليم الأزواج الجدد على كيفية التعامل الصحيح مع بعضهما البعض ومراعاة حقوقهما المتبادلة تجاه الآخر، وكيفية تعامل الزوج مع زوجته ليكون مصداقاً لوصايا المعصومين في حق المرأة، فعن رسول الله (T): (اتقوا الله عزوجل في النساء فإنهن عوان بين أيديكم، أخذتموهن على أمانات الله)، وعنه (T): (مازال جبرائيل يوصيني بالنساء حتى ظننت أنه سيحرم طلاقهن).

وكذلك تعليمهم على عدم توقع الزوج من زوجته مراعاة حقوقه وتنفيذها بجميع حذاريها وأدق تفاصيلها، ليقوم في المقابل بهضم حقوق زوجته قاطبة. وأخيراً.. فان مشوار علاج العنف لازال في بداياته حتى تتغير العقلية والرؤية العامة تجاه المرأة، وتصبح المرأة إنساناً نو كيان، وذو اعتبار ثابت لا يمكن في أي وقت التنازل عن حقوقه والتضحية عن مكسباتها.

وإن أهم التحديات التي تواجهه وقاية المرأة من العنف وتهدها هو الفرق بين ما يقال وبين ما يمارس، فهناك كلام كثير يقال عن المرأة، لكن ما يمارس يختلف ويناقض ما يقال، فمن المهم إذن أن يتطابق القول والممارسة في معاملة المرأة في محل عملها، أو ماشية في

للرجل على المرأة، إذ انه من يعول المرأة فلذا يحق له تعنيفها وذلك عبر إذلالها وتصغيرها من هذه الناحية. ومن الطرف الآخر تقبل المرأة بهذا العنف لأنها لا تتمكن من إعالة نفسها أو إعالة أولادها.

ويأخذ العامل الاقتصادي نسبة 45٪ من حالات العنف ضد المرأة.

7- عنف الحكومات والسلطات : وقد تأخذ الأسباب نطاقاً أوسع ودائرة أكبر عندما يصبح بيد السلطة العليا الحاكمة، وذلك بسن القوانين التي تعنف المرأة أو تأييد القوانين لصالح من يقوم بعنفها، أو عدم استنصارها عندما تمد يدها لأخذ العون منهم.

فهمما اختلفت الأسباب والمسببات تبقى ظاهرة العنف ضد المرأة ترصد نسبة 7٪ من جميع النساء اللاتي يمتن ما بين سن الخامسة عشرة والرابعة والأربعين في جميع أنحاء العالم حسب التقرير الصادر عن منظمة الصحة العالمية.

- أين يكمن العلاج؟ بما أن ظاهرة العنف ضد المرأة ظاهرة قديمة وكبيرة الاتساع منذ أن كانت في العصر الجاهلي تباع المرأة وتشترى، وتوآد في التراب وهي حية، فلا نتوقع أن يكون حل هذه الظاهرة أو علاجها آتياً وبفترة قصيرة. وإنما لابد من كونه جذرياً وتدرجياً من أجل القضاء عليها أو الحيلولة إلى إنقاصها بأكبر قدر ممكن. وذلك عبر:

* الرجوع إلى القانون الإلهي والشريعة الإسلامية التي تعطي للمرأة كامل حقوقها وعزتها وكرامتها، كما وتقدم لها الحماية والحصانة الكاملة. قال تعالى (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف) (البقرة 228)، (وعاشروهن بالمعروف) (النساء 19)، وينظر إليها كإنسانة لها ما للرجل وعليها ما عليه، وأنها مساوية له في جميع الأحكام إلا ما خرج بالدليل، (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء) (النساء 1).

وقد أثبتت التجربة أن القوانين الوضعية لم تتمكن من إعطاء المرأة حقوقها وحمايتها، وإن كانت ترفع الشعارات لصالحها.

* تطبيق هذه القوانين الإسلامية من قبل المسؤولين كالحكومات والمؤسسات والمتصددين للأمور، ومعاينة من يقوم بالعنف ضدها، كي تحس المرأة بالأمن والأمان وهي قابضة في قعر دارها، أو عاملة في محل عملها، أو ماشية في



الحائط)، أو (المرأة مثل السجادة كلما دعست عليها بتجوهر) أو... ولا يخفى ما لوسائل الإعلام من دور لتساهم في تدعيم هذا التمييز وتقبل أنماط من العنف ضد المرأة في البرامج التي تبث واستغلالها بشكل غير سليم.

5- الأسباب البيئية: فالمشكلات البيئية التي تضغط على الإنسان كالازدحام وضعف الخدمات ومشكلة السكن وزيادة السكان و...، بالإضافة إلى ذلك ما تسببه البيئة في إحباط الفرد، والنجاح فيها كتوفير العمل المناسب للشباب، فذلك يدفعه دفعا نحو العنف ليؤدي إلى انفجاره إلى من هو أضعف منه (المرأة).

6- الأسباب الاقتصادية: فالخلل المادي الذي يواجهه الفرد أو الأسرة أو...، والتضخم الاقتصادي الذي ينعكس على المستوى المعيشي لكل من الفرد أو الجماعة حيث يكون من الصعب الحصول على لقمة العيش و... من المشكلات الاقتصادية التي تضغط على الآخر أن يكون عنيفاً ويصعب جام غضبه على المرأة. أضف إلى ذلك النفقة الاقتصادية التي تكون

العنف نحو 83 بالمئة من الحالات.

وقد يكون الفرد شاهد عيان للعنف كالذي يرد على الأمهات من قبل الآباء بحيث ينشأ على عدم احترام المرأة وتقديرها واستصغارها، فتجعله يتعامل بشكل عنيف معها، ويشغل هذا المورد 39 بالمئة من الحالات.

4- العادات والتقاليد هناك أفكار وتقاليد متجذرة في ثقافات الكثيرين والتي تحمل في طياتها الرؤية الجاهلية لتمييز الذكر على الأنثى مما يؤدي ذلك إلى تصغير وتضليل الأنثى ودورها، وفي المقابل تكبير وتحجيم الذكر ودوره. حيث يعطى الحق دائماً للمجتمع الذكوري للهيمنة والسلطنة وممارسة العنف على الأنثى منذ الصغر، وتعويد الأنثى على تقبل ذلك وتحمله والرضوخ إليه إذ إنها لا تحمل نسباً سوى أنها ولدت أنثى.

كما أن الأقوال والأمثال والتعابير التي يتداولها الناس في المجتمع عامة بما في ذلك النساء أنفسهم والذي تبرز مدى تأصيل هذه الثقافة، بحيث تعطي للمجتمع الذكوري الحق في التمادي ضد الإناث مثل: قول المرأة عند ضربها من قبل الرجل (ظل رجل أحسن من ظل